

## نظامنا الاجتماعي

(٥) كيف تتأصل الرذائل وترتسى الفضائل

« تقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يريد الإسلام فيعبد أن نطق بالشهادتين قال إني أقترف من الذنوب يا رسول الله ما لا أستطيع تركه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعاهدني على ترك الكذب قال نعم ثم عاهدته على ذلك وانصرف وهو يقول في نفسه ما أهون ما طلب مني هذا النبي الكريم فلما أراد الرجل بعد ذلك أن يسرق قال في نفسه إن سرقته وسألني الرسول فإذا يكون جوابي إن أحييت نعم فقد حق على العقاب وإن أحييت بلا فقد كذبت وقد عاهدته على ترك الكذب إذن غير لي أن أتبع عن السرقة فابتعد عنها وصار بعد ذلك يتذكر عهده كلما حدثته نفسه بالركاب إنهم فيتعهد عنه حتى صلح حاله وصار من خيار الناس العاملين على نصرته الدين والتمسك به وبفضائله هذا خير سبيل في استئصال الرذائل وتربية الفضائل في الفرد والجماعة إن لم يكن هو السبيل الوحيد لمن يريد الإصلاح حقاً حتى يصل بالنفوس إلى الغاية التي خلقت لها ولا غرو فهذه سبيل رسول الله خير الهداية والمرشدين وإمام الحكماء والمرتبين وربنا تعب علماء الأخلاق وأساتذة التربية في اختيار أقرب طريق لإحلال الفضائل محل الرذائل وتحقيق تلك الغاية الباقية بعد أن يفرغوا ما في جمعياتهم من الآراء النظرية في معامل التجربة من نفوس الأحداث الذين هم أقرب إلى الفضائل منهم إلى الرذائل فكيف يصلحون الشباب والشيب ويبحثون منهم أصول الرذائل وإن كان هم المرين محصوراً في النفس الحديدية وما كثر تجاربهم فيهم وما أقل نجاحها وتلك حقيقة لا ريب فيهم أو إن آلتنا! ولنا من الذين ينالون أنفسهم في الحقائق اظاهرة من الظواهر الكاذبة إن المغالط في الحقيقة نفسه باع على النفس الضعيفة عاد

فعل كل إنسان أن يعاهد نفسه على ترك الكذب قبل أن يعاهد غيره من أولى الأمر على ترك هذه الرذيلة فقد لا يهتم أولو الأمر بهذه المعاهدة لأنهم لم يجدوها في الأمم الحالية ولا المحدثنة وإنه يجدر بالأب أن يعاهد أبناءه على ترك الكذب وبالعلم أن يعاهد تلاميذه على ترك الكذب وبكل وليس أن يعاهد مرءوسيه على ترك الكذب ولا بد من الرقابة العامة لتنفيذ تلك المعاهدة المبسورة وتحقيقها. ولأن يضررك الصدق خير من أن ينفعك الكذب

قال الإمام علي كرم الله وجهه عودوا أبناءكم الصدق يعتادوا كل فضيلة لذلك ترى ضرورة الكتابة في الصدق لتوقف الثراء على أبحاثه فتجلبى للناس سبيله فيعمل له العاملون وخير القول ما صدقه العمل فنقول :

الصدق مطابقة الكلام للواقع والاعتقاد فإن أخبر إنسان بما يطابق الواقع فقط دون اعتقاده فكذب كقول البوذي (محمد رسول الله) وإن أخبر إنسان بما يطابق اعتقاده دون الواقع فكذب أيضاً مثل قول البوذي (إن بونا إله) ولا تكون الفضيلة فضيلة إلا إذا كانت صادرة عن ضمير واعتقاد كما لا يخفى لذلك نعد النفاق من الكذب لأن المنافق يظهر خلاف ما يبطن ويعتقد وهذا كذب عملي كما أمد الملق من الكذب لأن الملق أو المتعلق الذي يمدح إنساناً بما لا يعتقد فيه ليس له بنية الحصول منه على منفعة كذاب في قوله كذاب في عمله والواجب علينا أن نتخذ الصراحة ديننا فنفتح قلوبنا لمن يخاطبون ونخاطبهم وأن نصدق في التعبير وفق الواقع والاعتقاد فالنفاق والملق نوعان من الكذب قد وضع لهما اسمان خصيصان بهما والصراحة نوع من الصدق ولكن وضع لها اسم خصيص بها

والصدق أهم القواعد التي تبنى عليها المجتمعات ولولاها ما بقي مجتمع ذلك لأنه لا بد للمجتمع من أن يتفاهم قراده بعضهم مع بعض لينامونوا وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم يعيشوا ومعنى الأفهام أن يوصل الإنسان ما في نفسه من الحقائق إلى غيره — ألا ترى أن ذلك هو الصدق ألم تر إلى التاجر إن لم يعتمد على غلبة صدق المقال لا ينتقل من بلد لآخر لأجل البيع أو الشراء وكذلك الذي يشتري منه إن لم يصدق التجار فيما يقولونه من الأمان وما يروى إليه من الأخبار في هذا الصدد لا يقدم على الشراء ولذلك قيل في المثل رأس مال التاجر صدقه ومثل ذلك يقال في الزراعة والصناعة بل قد يتجاوز ذلك إلى الحاكم والمحكوم فإن الحاكم إن لم يملب عنده صدق الشهود والصكوك والوثائق لا يستطيع رد الحقوق إلى أربابها ولا إصاف المظلوم من الظالم ولا إثابة الحسن ومعاقبة المسيء. كذلك المدرس إن اعتاد الكذب أضر بتلاميذه لأنه يقذف في عقولهم معلومات كثيرة الأخطأ فإذا ظهر أمره لديهم كذبوه في كل ما يقول لهم وإن كان صدقا والكذب في العلم كالكذب في المعاملة إن لم يكن شرا منه وقد يصل ضرر الكذب إلى الديانات والشرائع فإنا إذا لم نصدق ما جاء فيها من عظيم الآداب وصادق التشريع لكنا هملا لا ندبر بدبر . والكذب في كل أولئك ونحوها يحل بالمقصود من المجتمع الإنساني فيتصدع به بناء الوحدة ويختل

نظام العدالة فتصبح الامم فراداً لا يراعى كل فرد إلا قائدة نفسه دون غيره . فظهر من هذا كله أن الصدق عليه مدار نظامنا الاجتماعي وأن الكذب معول هدمه كيف والمتصف به فقد مزية النطق الذي من شأنه ان يكون إعراباً عن الحقيقة . ومما يشاهد في شأن الكذب أن الكذبة الواحدة قد تقتضى كذبات لتغطيتها وهيات ذلك لأن الكذاب يخلق في الدنيا بكذبه ما لم يوجد . يخلق خيالاً لا يتفق والواقع وقد يضطره هذا الخيال أن يكذب كثيراً ليوافق بين الواقع والخيال كما يفعل بعض الصحفيين في زمننا هذا . أما أسباب الكذب فكثيرة أهمها ما يأتي

(١) ولوع المرء بمدح نفسه بما يتخذه جالباً لفائدة أو مدح من سيمت إليه بصداقة أو قرابة أو يرجو منه نفعاً جزاء ذلك المدح كالشاعر المداح والصحفي المأجور وإذا استمر الإنسان على هذا المدح لتلك المقاصد المقيتة صار له الكذب ملكة راسخة فتراه لا يخلو كلامه من الكذب ولو حاول ان يقول صدقاً فإن الخلق ابن العادة كما تقدم ذلك في مقالنا السابق وعلى هذا القياس من اعتاد الصدق فإنه يؤثره على الكذب ولو أضر به

(٢) التخلّص من المشوآت والمقاب كما نشاهد ذلك كثيراً في المحاكم والمصالح والصناعات وإن كانت الحقائق تظهر بعد ذلك كالشمس في رائمة النهار إن كان المحقق قديراً وبالرء يس ذكنا خيراً بالأمر بصيراً

(٣) الخداع كما في حالة الحروب فقد ترى أمة محاربة لأخرى تكذب عليها للايقاع بها كأن تقول إنها ستهاجمها من جهة لا تريدها أو تأخذ في الهجوم من ناحية وفي عزمها الهجوم من ناحية أخرى وهذا نوع من الكذب ممدوح لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ( الحرب خدعة ) وشواهدة تشاهد في هذه الأيام الجاضرة كما شوهدت في الأيام الفارة

(٤) تمويه الأمر على المريض مع القيام بعلاجه لئلا تزداد آلامه أو تترك الحسرة في نفسه آثاراً سيئة تحدث أمراضاً أخرى . وقد أباح علماء الاخلاق الكذب في هذا الموضع رحمة بالمريض وذويه ولسكن يحجب على المريض ألا يكذب على الطبيب في مرضه ولا في بيان اعراضه كذلك يحجب على الطبيب أن يصدق مع المريض في العمل اكثر من القول إن رأى ان قون انصدق ضار بالمريض كما تقدم

وكما يكذب الانسان على غيره كساحبه وأخيه وأمه يكذب على نفسه وكثيراً ما يكون ذلك كمن يحاول ان يخلق لنفسه الاعتذار عن كذبه أو بخره أو صوته أو

جنبه خداعاً لنفسه وصرفاً لها عن الحق . وقد يفرق الإنسان في هذه الحال حتى  
تصير عادة له وحتى لا يستطيع له ان يميز الحق من الباطل وانصدق من الكذب  
ويكون مثله مثل من يطيل الإقامة في الظلام فإذا صادفه النور فجأة لم يستطع تمييز  
ما فيه . وإن أولى الناس بالعناية الخلقية والتربية الحقيقية هم الأحداث لأنهم مهيئون  
إلى الخير أكثر من الشباب والشيب فلعلنا ان نرى فيهم أصل الفضائل أعنى الصدق  
بأن نعاهدهم نحن الآباء والمدرسين على ترك الكذب وأن تكون نحن نماذج حسنة في  
الصدق في أقوالنا وفي الوفاء بوعودنا ووعيدنا بلا شطط أو تفريط وأن نبعث فيهم  
الاحساس بمحاثق الأشياء وأن نباعد بينهم وبين الأقاصيص الباطلة والخرافات التي  
سمعتها من آباءنا أو أعمامنا أو اطلعنا عليها في المؤلفات ككتاب الف ليلة ويلة  
وقصص الأبطال الذين سلفوا كعنترة العبيدي وإبن زيد الهلالي ومهلل التغلبي  
فإنها محسوسة بالاساطير وإن كان عنترة من أشجع أهل زمانه وأبو زيد من أحرأ أهل  
عصره وأوانه ومهلل صاحب التارات الشعواء والكثائب الجأواء إلا أنهم لم يكونوا  
بالدرجة التي وصفهم بها أولئك القصاصون ولم يخوضوا بحر تلك الدماء التي أراقوها  
ولم يقولوا كل تلك الأشعار التي أنشدوها وإن كان لهذه القصص فوائد للكبار من  
حيث تقوية الخيال والاستمتاع بلذيذ السمر مع اعتقادهم بأنها أحاديث خرافية ولكن  
لا فائدة منها للصغار إلا إضاعة الأوقات وتمويدهم الكذب وتصديقهم بكل ما يقال  
ولو كان غاية في المباهمة والكذب قياساً على ما قرءوه في تلك المؤلفات الخرافية وقد  
دلتى الاستقرار على فساد عقلية أولئك الناس الذين يستمعون لهذه القصص وعلة  
فسادها اعتقادهم أنها حق لا ريب فيه وصدق لا شك فيه والواقع أنها كذب لا شك فيه  
وإذا كانت القوائين تعتبر مزيجاً القصد جناة مجرمين لأنهم ينشئون المتاملين  
في شأنهم المادية فما قولك فيمن يفسد العقول والقلوب ويترىف النفوس ويستبها  
بالبكتابات البكاذة والأحاديث الملتفة وليس أوقع في نفس المطالع أو السامع من  
الكلمات العقلية الصادقة التي تصدر حقيقة من القلب إلى القلب . وعلى الجملة فالصدق  
أصل الفضائل والكذب أصل الرذائل . مثل وسطاين الحكيم ما ضرر الكذب فقال  
( الأ يتق الناس بقولك حين تصدق ) . وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما كبرت  
خيابة ان يحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وانت له به كاذب . وفي هذا بلاغ

عبد الرحيم محمود

المدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية والمتعلمين الثالوث